★★★★★ البعد القومي للأدب العربي ★★★★★

ربما كان الادب العربي ، وعلى مر العصور ، هو الفعالية الوحيدة التي استطاعت دون غيرها من الفعاليات الاخرى ، والتي كانت تتحكم بشكل أو بآخر بمقدرات المجتمع العربي وطموحاته الواحدة وتطلعاته نحو المستقبل سلبا أم ايجابا ، أن تظل في منأى بعيد بعض الشيء عن التقوقع والقيدية القبلية أو الاقليمية . هذه الفعاليات غير الادبية التي كانت تحاول وتسعى أن تحدّ من انطلاقته وانتشاريته نظرا للظروف السياسية المتحكمة بالانسان العربي وتكوينه المتكامل ، والساعية في معظم الاوقات الى تمزيق الوجه القومي الواحد وتحويله الى وجوه وطنية متعددة ، وهذا ما كان يعكس على أرضية الواقع ضغوطا مختلفة ، كانت تؤثر بشكل مباشر على واقع الحياة الاقتصادية والاجتماعية وغيرها من أوجه الحياة المختلفة ، والتي تشكل بمجملها العام ينبوع الحياة الدائم والمتجدد لاي مجتمع من المجتمعات . ذلك ان عدم تلاحم الاشكال السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وانصهارها في بوتقة واحدة سيؤدي حتما الى تخريب البنية الحياتية للمجتمع وتفتيت قدراته الانسانية والطبيعية ، وبالتالي يكون تحت تأثير تهديدات مستمرة قد تقضي عليه حينما تصل هذه التهديدات الى نقطة معينة تمتلك فيها القدرة القصوى وتستخدمها في التنفيذ والتطبيق .

لقد مر الوطن العربي بارهاصات تاريخية وامتحانات قسرية جعلته يعيش حياته التطورية في ارهاق دائم وكوابيس مستمرة، مضطربا حينا ومشوشا أحيانا أخرى ، نتيجة احتقانه بضغوط خارجية وداخلية ذات أطر مختلفة ، فالضغوطات الخارجية كانت تتوالد وباستمرار عبر الهجمات ـ وأهمها العسكرية ـ على تخوم وثغور الدولة الواحدة ، أو الدول المتعددة التي انسلخت عن الدولة الأم واختارت مبدأ التجزؤ ، وأحيانا الى داخل الدولة وأعماقها . وقد اتخذت هذه الهجمات في مراحل تاريخية متعددة سمة الاستقرار السلطوي ووضع التسيير السياسي والاقتصادي والعسكري بأيدي أصحاب تلك الهجمات وعناصرها القريبة الهجينة عن الانسان العربي ، والعاجزة أو غير المستعدة لتفهم الاحاسيس الوجدانية لدى الفئة العظمى التي أصبحت مغلوبة ومقهورة ، ولكن كانت لدى تلك العناصر الهجينة القدرة على ممارسة الضغوط والارهاب السلطوي واستلاب الطاقات البشرية من فعالياتها الاقتصادية والاجتماعية .

اما الضغوط الداخلية فتتجلى بالاستئثار والرغبة في التحكم والسيطرة العمياء والتمترس في مواقع متعالية فوقية وبعيدة عن الارضية الجماهيرية والتلهي عن القضايا المصيرية العامة بقضايا ذاتية وآنية ، بالاضافة الى انها لا تملك الوعي السياسي القادر على التطلع نحو الامور المستقبلية الهامة وعلى محاولة فهمها والتحكم بها . وهذا ما يدفع بالقوى المتناقضة الى التطاحن والتعارك الدمويين في مسارات سلبية انحدارية . والى ترسيخ الاسوار والحدود فوق الارض العربية وداخل المجتمع الواحد والمجزأ الى مجتمعات متعددة .

عبد الرحمن عمار

ولم تكن الضغوط الخارجية والداخلية في الحقيقة سوى مجريين مختلفين ولكنهما يصبان السموم في نقطة واحدة وبحر واحد ، انهما شكلان من أشكال الممارسة الفوقية القهرية التي تدفع بالمجتمع الى نقطة الانهيار الفعلي بعد أن تعبأ الزجاجات الفارغة من دم أفراده ، لاعتقادها بأن الزجاجات الملأى بالدم ما هي الا وسيلة للتركيز والبقاء والاكتناز السياسي والاقتصادي ، وترسيخ الحياة الطافحة بالاطمئنان والهناءة والملذات .

* * *

اذا نحن حاولنا أن نعدد المراحل التي مر بها المجتمع العربي عبر تاريخه ، استنادا الى ما سبق ، لأمكننا أن نحصرها بأربع مراحل متعددة ومتباينة ، كان فيها الادب والفكر العربيان في أكثر الاحيان يشكلان الفعالية المتكاملة في التوحد والانتشار عبر جميع الاماكن التي يتواجد فيها اللسان العربي ، بغض النظر عن ماهيتهما ومضامينهما . وهذا التوحد في الفعالية الادبية والفكرية ساهم عبر العصور في الترابط الوجداني والروحي والمصيري بين العرب جميعا ، كذلك

ساهم في التقارب الفكري والعقائدي وأكد على صهرها والتقائها في هدف واحد . ومع ذلك فيمكن القول بأن الفعالية الادبية لم تستطع الوصول الى المستوى الانتشاري المطلوب في أوقات كانت الضغوط السياسية والاقتصادية تحاول أن تحدّ من انتشار تلك الفعالية الادبية وتعرقل مسارها ، لان التعارض فيما بينها كان صريحا وحتميا ، فالفعالية الادبية كانت غايتها دائما الانطلاق والتعايش مع الدوافع الفوقية والانسانية والتفاعل معها ، وهذا ما يتعارض مع الفئات والقوى المتحكمة والمهيمنة على البنى السياسية والاقتصادية ؛ فكانت تسعى بشتى الوسائل كي تظل تلك الفعاليات الادبية في تقوقع وتحلزن دائمين ضمن دوائر مسورة وضيقة .

ولنعد الآن الى المراحل التاريخية التي مر بها المجتمع العربي ؛ وأولها :

١ ـ المرحلة القبلية

وأعني بها العصر الجاهلي ، ففي هذه المرحلة كان المجتمع العربي مفككا متناحرا لا تربطه سلطة واحدة ، حيث لا ولاء من الفرد الا للقبيلة التي ينتمي اليها ، والتي كانت تمارس حياتها الكلية بمعزل عن بقيةالقبائل الاخرى . وكانت كل قبيلة تشكل شبه دولة لها ممارساتها الخاصة والمستقلة عن سائر القبائل ، وما أكثر القبائل التي كانت تعيش في أرض الجزيرةالعربية آنذاك . والتي كانت تعاني من تخلخل واضطراب وغزو مستمر فيما بينها . ومع ذلك ظلت هناك روابط متعددة ومتينة تربط هذه القبائل الغازية والمغزوة وتوحدها في أمة متكاملة ، ومنها الرابطة اللغوية التي تتولد منها الفعالية الادبية . وكذلك الظروف المعاشية والبيئية المتشابهة والعادات والتقاليد التي كانت تتحكم بأحاسيس الفرد والجماعة ؛ كل ذلك كان يشكل الروح التلاحمية لتلك الفعالية الادبية ، والتي ظلت في منأى عن التقوقع والسكون القبلي واللاحركية نحو تطور طبيعي . وهذا يعني ان هذه الفعالية الادبية ظلت في استمراريتها المتكاملة دون أن تكون هناك أية فوارق في الملامح الشكلية أو المضمونية بين ادب القبائل جميعها . ونظرة سريعة الى قصائد المعلقات ، مثلا ، ترينا أدبا متلاحما مع انها لشعراء ينتمون الى قبائل متعددة بدءا من امرىء القيس وانتهاء بالحارث بن حلزة ، وليس هناك أي تفرد في أحدى المعلقات أو ملامح خاصة تجعلها عملا يختلف عن غيره من الاعمال الاخرى ، وانما هناك أشتراك بكثير من الصفات والمحتويات الداخلية فيما بينها تجعلها ، مع الشعر الجاهلي عموما ، أدبا متوحدا ومتميزا خلال مرحلة تاريخية معينة . ولم نر باحثا أو دارسا فيالعصور اللاحقة ومنها عصرنا الحاضر الا وتناول الشعر الجاهلي ، على انه أدب مترابط ومتلاحم . ولم يتناوله قط على أساس قبلي ، أي على أساس أن هناك شعراء من قبيلة ما يتميزون بأشعارهم عن آخرين من قبيلة أخرى ؛ ويشكلون نمطا معينا ومسارا مختلفا وشكلا مغايرا من أشكال القصيدة العربيه آنذاك .

٢ ـ مرحلة الدولة الواحدة

كان ظهور الاسلام أساس هذه المرحلة حيث جمع القبائل العربية تحت هدف العقيدة الجديدة في دولة واحدة . ومن ثم توسعت وامتدت اثر الفتح العربي في العصر الاموي كله وفي بداية العصر العباسي . ومن الطبيعي أن ينهج الادب في هذه المرحلة نهجا يختلف عن سلفه الادب الجاهلي ، وذلك نتيجة للتغيرات الجذرية في المفاهيم والمعتقدات الجديدة ، ونتيجة للتطورات التي حدثت ، السياسية منها والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ؛ اذ بدا المجتمع في تلك المرحلة يتحول من مجتمع صحراوي بدوي الى مجتمع يتلمس طريقه في بناء حضارة ورقي وتقدم في جميع المجالات. وبدأت المدينة في جميع الامصار تستوعب أعدادا كبيرة ممن كانت الصحراء سابقا كلّ وجودهم واستمراريتهم وبدأ الاستقرار فيها يشكل ظاهرة تطورية واضحة .

فالتطورات الحياتية بكل أشكالها المستحدثة هي التي أثرت على الادب وجعلته ينهج نهجا جديدا ويتخذ ملامح واشكالا وقوالب محدثة . والذي أود تأكيده هنا ، هو ان تلك المنهجية الجديدة لم تكن تتواجد في أرضية معينة دون غيرها ، وانما شملت شتى البقاع والامصار التي كان يعيش فيها الانسان العربي ، وهذا يعني انه لم يكن هناك من اختلاف في المناهج أو الملامح والقوالب الادبية بين أدباء يعيشون في مكة مثلا أو بين غيرهم يعيشون في دمشق أو بغداد ، وانما كان الادب في أية بقعة او بيئة عربية يتخذ المسارات والاتجاهات التطورية نفسها ويتناول الموضوعات ذاتها التي كانت سائدة في تلك المرحلة . وهذا يعني التأكيد على وحدة الادب العربي والثقافة العربية .

٣ ـ مرحلة الانتكاس السياسي والاجتماعي

في هذه المرحلة بدا التفكك يتسرب الى أوصال الدولة العربية الواحدة ، بعد أن بلغ المجتمع العربي ذروة الحضارة في ذلك العصر ، والتي دفعت بالمجتمع الى أن يتخلى عن بعض موروثاته ويكتسب بدلا منها أشكالا هجينة من التقليدات الحياتية الغريبة عن طبيعة العربي وسلوكيته الصحراوية الفطرية ، وهذه الاشكال انما جاءت نتيجة احتكاكه بمجتمعات أخرى كالمجتمع

الفارسي الذي انصهر كليا بالحياة السياسية والعقائدية العربية . بعد انهزامه أمام الفتوحات العربية . وكذلك المجتمع البيزنطي الذي كان قريبا من التخوم العربية الشمالية .

ومن الاسباب التي أدت الى هذه المرحلة ، تلك الصراعات السياسية الحادة بين الفئات الحاكمة والفئات المطالبة بالحكم ، والتي ما هدأت في يوم من الايام ، فتمخضت عن صراعات مذهبية بين فئات متعددة داخل المجتمع الواحد .

جميع هذه الاسباب ، ومع تطاول الزمن ، أدت الى تصدع مستمر في بنية الدولة الواحدة بدأت بوادره بالظهور حين بدأ الحكم الذاتي في الاندلس يتخذ شكل الدولة المستقلة . بينما كانت الدولة العباسية في المشرق تعمق أسس وجودها على انقاض الحكم الاموي المنهار في الشام ، ثم تتابع التصدع ونشأت دويلات عربية مستقلة في ادارة شؤون البلاد استقلالا تاما ولا يربطها بالدولة العباسية القائمة في بغداد آنذاك سوى شكليات لا قيمة لها .

وازاء هذا الواقع السياسي والاجتماعي المتصدع، ظل الواقع الادبي يتخذ منحى ايجابيا من ناحية التكامل والسمات المشتركة ، مع انه بدأ يتدرج نحو الانحطاط والجمود في الاشكال والمضامين . صحيح ان الادب الاندلسي ، على الرغم من التبادل الثقافي المستمر بين مشرق الوطن العربي ومغربه ، والذي لم نشاهد له مثيلا حتى في عصرنا الحاضر ، بالرغم من توفر الوسائل الحديثة للتبادل الثقافي والامكانات التي لم تكن موجودة في ذلك العصر ، ومع ذلك ظلت المؤلفات العربية ترحل ما بين الاندلس والمشرق العربي دون أن تواجه تلك الصعوبات والتعقيدات التي نعرفها الآن في التبادل الثقافي ، أقول : صحيح ان الادب الاندلسي كان يتأطر على منهجه ويتخذ لنفسه سمة وملامح خاصة متفردة، ولكن هذا أبعده بعض الشيء عن جذوره الاصيلة ، والذي أدى الى ذلك هو تعايش المجتمع العربي الاندلسي في بقعة جغرافية شبه منعزلة عن أراضي الدولة العربية الأم ، مما أفقده حسن الالتحام مع ذاته الاساسية ومع ينابيع تاريخه وروافدها . وعلى النقيض من ذلك كان شديد الالتصاق والاحتكاك مع مجتمعات تختلف من حيث الواقع الحياتي والسلوكي عن المجتمع العربي ، وهذا ما أكسب المجتمع الاندلسي كثيرا من الصفات المستوردة ، وتكونت لديه انطباعات جديدة واستقرت في ذهنياته قناعات مستحدثة ، بينما اخذت دائرة التفاصل تزداد اتساعا ليتعمق فيها التباعد عن الموروثات الاجتماعية والثقافية والانفلات من الجذور التي تشده الى محور الانتماء الحقيقي .

كل ذلك ادى بالمجتمع الاندلسي الى احداث قوالب مجتمعية جديدة ، ولكنها قوالب مبتورة ، انطوائية ، لا تستند على أسس من العمق والشمول . وهذا ما جعل تلك القوالب غير قادرة على الرسوخ والثبات ، مما ادى بالمجتمع الى النكوص والانهيار .

وأحب ان أؤكد هنا ، ان البقعة الجغرافية شبه المنعزلة لم تكن قط سببا في أحداث ذلك النكوص ، لان الالتحام المجتمعي كان ممكنا جدا ، على الرغم من أن الواقع الجغرافي قد يكون له بعض التأثير في احداث بعض الشروخ داخل المجتمع الواحد ، ولكن الذي أدى الى انهيار المجتمع الاندلسي هو الرغبة المكتسبة في جعل الجزء كلا ، والسعي عبر بعض الممارسات المغلوطة الى تكوين مجتمع أندلسي متكامل لا يربطه بالمجتمع العربي الاصل سوى تلك اللغة الواحدة .

يمكننا القول بعد كل ذلك ان انحدار المجتمع أو انتقاله من مرحلة حضارية الى واقع تخلفي كان سببا حتميا في التخلف الفكري والادبي في جغرافية الشرق العربي والشمال الافريقي ، مما مهد السبيل أمام الغزو المغولي الكاسح للوطن العربي ، ومن بعده الغزو الصليبي الذي استهدف الساحل الشرقي للبحر المتوسط ، وكذلك الغزو العثماني الذي استمر قرونا طويلة . بينما نرى بالمقابل الرقعة الجغرافية الاخرى — الاندلس — تنسلخ جزءا وراء الجزء الآخر وينهار فيها الانسان العربي ببطء نتيجة لانسلاخ المجتمع الاندلسي عن جذوره الاصيلة وانشطاره عن أصوله التاريخية ، على الرغم من ان الادب والفكر هناك بلغ في تطوره مرحلة متقدمة قياسا مع ذلك العصر .

٤ — مرحلة النهوض الفكري والتجزؤ السياسي

نظرة سريعة الى هذه المرحلة التي تمتد حتى وقتنا الراهن ، تبين لنا ان المجتمع العربي أخذ يمر بتحولات دقيقة من حياته في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حينما بدأ الفكر ينشط على أيدي نخبة من المثقفين المتطلعين الى بعث الروح القومية وتعميقها ، والراغبين في الانسلاخ عن الواقع السياسي المفروض ، والساعين الى الاستقلالية والسيادة القومية، في حين راح الادب يخلع قوالبه العتيقة الفارغة المحتوى ليتجدد متأثرا بالآداب والفلسفات الغربية . وكان ذلك يشمل جميع أشكال الادب في جميع البقاع الجغرافية العربية ، وهذا يعني ان يقظة الادب كانت تشمل الوطن العربي ، وخاصة في تلك الاقطار التي كانت تتعرف على أشكال الحضارة الحديثة نتيجة الاحتكاك المباشر أو غير المباشر مع المجتمعات الغربية المتحضرة ، وكان التعبير عن الذات القومية قبل كل شيء هو السلوكية الهامة التي تميز بها الادب العربي في بداية تلك الفترة ،

وهذا ما جعله يحقق أدبا قوميا وليس أدبا قطريا متقوقعا على ذاته ، مما افسح المجال أمامه للانطلاق والتنقل عبر حواضر الوطن العربي لانه كان انعكاسا حقيقيا لاحاسيس الجماهير وتطلعاتها .

ومع ذلك لا نستطيع أن نتغاضى أو نهمل بعض الحركات والاتجاهات الانفصالية والقطرية في الادب والفكر . تلك التي حاولت أن ترسم منهجا مخالفا للروح القومية وتجتهد في الانسلاخ عن المجتمع العربي ، وتكون ذاتيه أدبية خاصة وشكلا متميزا عن غيره من الآداب العربية . وهذه الحركات والاتجاهات الادبية وصلت الى اوج نشاطها وحيويتها ، ان لم نقل وقاحتها، في وقت كان الاستعمار العسكري يهيمن ويبسط نفوذه بشكل كلي على وطننا العربي الذي تمزق على يديه حين رسم له حدودا ووضع الاسوار بين أقاليمه التي أصبحت دويلات مجزأة ومتناحرة .

وكان من الطبيعي أن يغذي الاستعمار تلك الدعوات الانفصالية في الادب وينميها ويرعاها ، في حين راح منذ البداية يمزق الترابط القومي ويخلق دويلات مجزأة ، معتمدا على نظريات هشة لا تستند الى أساس من الواقعية . وقد كرس كل جهوده العلمية في الكشف عن الآثار القديمة المدفونة في بواطن الارض في المناطق العربية المختلفة ، لا ليكشف عن تاريخ هذه المناطق الموغل في القدم خدمة للعلم والمعرفة ، وانما ليرسخ في الاذهان مبدأ التجزئة والانتماء الى شعوب قديمة بائدة . لقد حاول أن يبرز تاريخ الحثيين في سوريا الشمالية بشكل مسطح ، ليؤكد على انتماء الشعب السوري الحاضر الى ذلك الشعب القديم البائد، وكذلك فعل في بلاد ما بين النهرين ، اذ جاء بالمعطيات العلمية والتاريخية ليوهم الشعب العربي في العراق على انه من سلالة ذلك الشعب البابلي أو السومري اللذين كانا يعيشان في بلاد الرافدين منذ ثلاثة آلاف سنة .

أما في مصر فقد كانت الدعوة الى الانتماءات القديمة أحدّ وأخطر ، حيث برزت فكرة القومية الفرعونية بشكل يثير الاستهجان والاستغراب، وخاصة حينما راح يؤيدها ويعمل لها ومن أجلها كثير من مثقفي ومفكري القطر المصري في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن .

ان تأكيد الاستعمار على هذه الانتماءات التاريخية، انما يدل على رغبته لنزع المجتمع العربي المتكامل من أصالته القومية وتشطيره وتوجيهه نحو التمسك بالشعوبية والاقليمية ليسهل عليه البقاء ما أمكن ، وليظل قادرا على الهيمنة والسيطرة على مقدرات الشعب العربي واقتصادياته والتمكن من زرع العنصر الصهيوني واستيطانه وترسيخه في فلسطين العربية وخلق دولة اسرائيل لتكون السوط الذي يلهب الظهر العربي كلما بدت هناك بارقة نهوض وتكوين جديدة . ومما يدل على كل ذلك ما ذكره الدكتور محمد محمد حسين في كتابه « الاتجاهات الوطنية في الادب المعاصر » من ان الثري الاميركي اليهودي الاصل روكفلر صاحب الملايين قد أعلن عام ١٩٢٦ عن تبرعه بعشرة ملايين ريال اميركي لانشاء متحف للآثار الفرعونية في مصر ، يلحق به معهد لتخريج المتخصصين في هذا الفن ، واشترط لمنح هذه الهبة أن يوضع المتحف والمعهد تحت اشراف لجنة مكونة من ثمانية أعضاء ليس فيها الا عضوان مصريان . على أن تظل هذه اللجنة هي المسؤولة عن ادارة المتحف والمعهد لمدة ثلاث وثلاثين سنة . وقد كان واضحا من تحديد صاحب الملايين من الاشراف بثلاث وثلاثين سنة انه يهدف الى خلق جيل من المتعصبين للفرعونية ثقافيا وسياسيا ، ومصلحة الصهيونية في ذلك واضحة لانها اذا نجحت في سلخ الدول العربية من عروبتها تجنب اليهود كل معارضة لاستقرارهم في فلسطين . وقد رفضت الحكومة شرط اشراف الاجانب الفني على المعهد ، مما دفع روكفلر الى أن يسحب هبته آنذاك .

ولقد كانت مجلة « السياسة الاسبوعية » القاهرية من أهم المجلات وأخطرها على الواقع العربي حين تبنت تلك الافكار الاستعمارية صراحة ودعت الى الاقليمية وعملت من أجلها قصدا ودون رادع ، وذلك في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن ، ولم تدر انها كانت تتخبط في المغالطات وتسعى الى تهديم ذاتها ووجودها بمحاولتها تهديم بنية المجتمع العربي الواحد . وتشطيرها الى بنى متعددة ومختلفة الاتجاهات والمواقف المبدئية . وعلى صفحاتها نشر بعض الادباء بيانا بعنوان « دعوة الى خلق الادب القومي » يدعون فيه الى خلق أدب محلي يتميز بالطابع المصري . وقد بسط محمد زكي عبد القادر أحد أعضاء المجموعة أهداف هذه الدعوة في عدد تال من المجلة ـ ١٢ تموز ١٩٣٠ ـ قال فيه : « الادب المصري الذي نعنيه انما هو أدب محلي يصور الحياة المصرية والقومية المصرية وحدهما » . أما عبد الله عنان فقد كتب في ملحق « السياسة » سنة ١٩٣٢ يوضح القومية المصرية : « من الخطأ البيّن أن تنظم مصر في سلك البلاد العربية اذا تعلق الامر بالناحية القومية ، فالقومية المصرية قومية أثيلة ، وقد وجدت القومية المصرية منذ أقدم عصور التاريخ واقترن اسمها بحضارة من أقدم الحضارات . ولم تفقد الامة خواص الوحدة والتجانس منذ أيام الفراعنة » . ويقول بعد ذلك : « فهذه القومية المصرية الاثيلة هي التي تستظل مصر بلوائها اليوم . وهذه المصرية هي في الواقع دعامة شخصيتنا القومية ، فلسنا نفهم كيف ينكرها علينا بعض اخواننا العرب » .

ومن حسن الحظ ان هذه الدعوات الهدامة . مع انها حاولت أن تستنبت جذورها الغريبة وتتأصل فوق الارض العربية . لم تستطع أن تصمد وتستمر طويلا وتحطمت فوق رؤوس أصحابها بعد أن لفظتها عاطفة الجماهير الفطرية . ولم تسمح لها بالتغلغل في وجدانيتها المتفتحة . وخاصة حينما تنبه الشعب العربي الى أهواء الاستعمار وباطنياته ومحاولته طمس المعالم القومية ولا سيما في المغرب العربي ، ليتمكن من ابعاده عن جذوره والغاء هويته العربية ، وشده ثقافيا واجتماعيا الى حظيرته الاستعمارية . وبقي الادب القومي يصور بصدق ومعقولية . وكردة فعل لغايات الاستعمار . اهداف الجماهير ويعكس تطلعاتها وأمانيها نحو اشراقة مستقبلية ، باعتباره الادب الصادق الذي تفاعل مع الواقع وترسخت جذوره وتشعبت في كل المناخات الزمانية والمكانية ، وظل بيت حافظ ابراهيم الذي يتردد على الشفاه ـ مدرسيا ـ حتى الآن :

لمصر أم لربوع الشام تنتسب
هنا العلا وهناك المجد والحسب

ظل رمزا وتجسيدا لواقع الوحدة العربية التي اعتبرها الشعب العربي قدرا وعقيدة يحلم بها في كل مكان من أرض الوطن .

لم يترك الاستعمار العسكري أرضنا العربية الا بعد أن تأكد انه خلف وراءه أوصياء مخلصين يدورون في فلكه وينفذون غاياته ومراميه ويستمرون في تكريس التجزؤ القسري المفروض . ان الاستعمار قد جزأ الوطن العربي ورسم في داخله حدودا وأشكالا سياسية متنافرة في نظمها وقوانينها وسمى تلك الاجزاء باسمائها ثم رحل ، الا ان الاوصياء الذين استلموا المقود السلطوي وبسطوا أيديهم على المقدرات السياسية في الاجزاء المختلفة من الوطن العربي راحوا يكرسون هذا التجزؤ ويعمقون تلك الحدود الوهمية المفروضة لتكون حقيقة واقعة ، حيث شيدوا عليها النقاط الجمركية المتعددة واستحدثوا الاعلام والاناشيد رمزا لدويلاتهم ، وسارعوا الى هيئة الامم المتحدة للانضمام اليها لكي يؤكدوا على سيادة الدويلة والاعتراف بها ضمن حدود معينة ومرسومة ، ثم خطوا خطوات أخرى في سبيل أهدافهم ومكتسباتهم الشخصية . وفي سبيل تعميق الهوة والتباعد بين أبناء الشعب الواحد ، أبدعوا أشكالا غريبة وقيودا ذات سلاسل فولاذية وسنوا القوانين الجائرة لمنع الفرد من التنقل بحرية وأمان داخل الوطن العربي والاحتكاك مع غيره من الافراد الذين يشكلون بمجملهم مجتمعا موحدا مترابطا . ومن هذه القيود والقوانين عدم السماح للفرد بالسفر من القطر الذي ينتمي اليه ـ بحسب القانون المستحدث ـ الى قطر عربي آخر ما لم يقم بعملية شاقة ومرهقة للحصول على جواز سفر منظم . وكذلك على تأشيرة خروج وسمة دخول ممهورة حسب الاصول من الجهات المختصة في القطرين . وهذا فيما اذا سمح له بذلك ، ولم يضعوا على اسمه اشارة حمراء ، علما بأن دول أوروبا الغربية مثلا لا تتعامل فيما بينها بهذه الطريقة الفجة ، ولا تسلك هذه المسالك الموغلة في القهر والمهانة . مع ان كل دولة من تلك الدول تعتبر أمة لها مقوماتها القومية ولها أهدافها وتطلعاتها المستقبلية الخاصة بها . ان الفرد هناك حين يريد الذهاب الى دولة اخرى أوروبية لا يكلفه ذلك سوى أن يبرز هويته الشخصية لموظف الجمارك في احدى نقاط الحدود ، ثم يعيدها اليه بعد لحظات قائلا له بكل لطف واحترام :أتمنى لك رحلة سعيدة وموفقة يا سيدي !

* * *

وعلى النقيض من ذلك كانت الروح الجماهيرية تقف على الطرف المعاكس محاولة بتلاحمها الفطري والاجتماعي أن تتحرك من تلك الارضية الهجينة المفروضة لتنطلق الى أرضيتها الطبيعية الصحيحة ، وتسعى بكل ما تملكه في تكويناتها الداخلية من طاقات وقدرات ايجابية وبكل ما تؤمن به من قناعات واضحة أن تحطم تلك الاشكال المفروضة والسلبيات التي تكبل انطلاقتها وحيويتها ، ولهذا كان الصراع حادا ومستمرا بين الطبقات السلطوية والروح الجماهيرية .

ولا خلاف في ان الفعاليات الادبية الصادقه والملتزمة بقضايا الجماهير وهمومها كانت تنبت داخل الروح الجماهيرية وتنمو وتتوضح بحسب امكانية التصاقها بتلك الروح وبحسب مقدرتها على التعبير عن الواقع الحياتي المستمر بشكل يتوافق مع المسارات التطورية . ولهذا جاء الشعر الحديث في بداية الخمسينات من هذا القرن انعكاسا صادقا لتلك المسارات وردة فعل ايجابية لذلك الجمود الشعري العاجز عن استيعاب المفاهيم الحديثة ، وراح يتكون ويستقر بملامح شكلية ومضمونية جديدة استطاعت أن تستوعب المعاناة الجماهيرية بكل أبعادها وتحاول صياغتها برؤيا مستقبلية من خلال العبارات والصور المستحدثة والتركيب اللغوي المتطور ، ومن خلال منهجية جديدة قادرة على استيعاب مشاكل الانسان العربي بجزئياتها الدقيقة وفروعها المتشعبة ، وهذا الشعر الحديث ليست له ملامح متعددة واتجاهات مختلفة ، أعني ليست له بنى وأطر محددة قطريا ، لكل منها نسيجها الخاص ، ولا يمكن تجزئته ورده الى منابع متغايرة لكونه شعرا قوميا متوحد الجوانب والغايات ، ويتوجه بفعاليته الى أهداف متكاملة والى التمرد على بعض المفاهيم المغلوطة المتشابهة والمتأصلة في كل بقعة من الوطن العربي ، صحيح انه قد يكون لكل شاعر تجربته

الخاصة وصوته المتفرد ، وهذا ما يجب أن يكون فعلا ، ولكن هذا لا يعني أن نرد تلك التجربة أو ذلك الصوت الى قطر ما أو بيئة معينة ، فالسياب والبياتي وهما يعتبران رائدي الشعر الحديث ، لا يمكننا ان نقول ان شعرهما ، لكونهما شاعرين عراقيين ، ذو صفة عراقية، وذلك لاسباب متعددة . منها ان السياب والبياتي كانا يشكلان في شعرهما مدرسة مكتملة استطاعت أن تؤثر على جيل بأكمله من الشعراء العرب وفي اقطار متعددة. وكذلك كان شعرهما ينبع من داخلهما بروح ابداعية واحساس قوي متين ورؤيا شاملة لا تقف عند حدود العراق وحده ، وهذا ينطبق على كثير من الشعراء كصلاح عبد الصبور وأحمد عبد المعطي حجازي وعلي الجندي ومحمد عمران وممدوح عدوان وأمل دنقل ...

وما يقال عن الشعر عموما ، ينطبق على الفنون الاخرى كالقصة والمسرحية ، وهذان اللونان من الادب لم يكونا معروفين بقالبهما الفني الراقي قبل بداية القرن الحالي . فكما هو معروف بدأ اهتمام الادباء العرب بهذين اللونين من الادب حين راحت الثقافة الغربية تغزو عالمنا العربي بشكل مكثف ومتواصل ، فكانت هناك محاولات أولية وبدائية لكتابة القصة والمسرحية ، واستمرت هذه المحاولات بالتصاعد والنمو حتى بلغت أخيرا درجة عالية من الرقي والكمال . وقد ترسخت جذور القصة والمسرحية في وقتنا الراهن وأصبحتا ذات تأثير فعال على مجرى حياتنا الاجتماعية ، بعد أن تخطى الكتاب مرحلة الاقتباس والتقليد الى مرحلة متطورة من الخلق والابداع ، وهذا يعني ظهور عدد من الادباء الذين أصبح لهم الفضل في بلورة القوالب الفنية لكل من القصة والمسرحية كالطيب صالح وسعد الله ونوس وسليمان فياض وحنا مينه وغيرهم ، واستطاعوا من خلال أعمالهم أن يغوصوا في أعماق مشاكلنا اليومية ويقدموا لنا نماذج من الشخوص والاحداث كانت قادرة على أن تعكس بوضوح وجدية هموم مجتمعنا العربي ومشاكله وتصور لنا بدقة حالاته النفسية المضطربة نتيجة للظروف الحياتية الحادة التي يمر بها ويعاني منها.

وعلى الرغم من ان البعض منهم كان يقدم شخوصا وأحداثا مغرقة في المحلية ، فان هذه الشخوص والاحداث تظل تشكل نماذج واقعية لانساننا العربي بشكل عام . لان مشاكل الانسان العربي ونمط حياته وكذلك تطلعاته المستقبلية نحو ذاته وبلاده وارتباطه بجذوره التاريخية تعتبر واحدة أو متشابهة على أقل تقدير . وهذا ما يتأكد لدى القارىء وخاصة حين يطالع رواية « موسم الهجرة الى الشمال » للطيب صالح . ان أحداث هذه الرواية تجري في احدى قرى السودان ومع أن المسافة شاسعة بين السودان وبين أي قطر عربي آخر . فان الكاتب من خلال السرد الواقعي والحوار والوصف العام والخاص لأمكنة الحدث ـ القرية وللشخوص القاطنين بها ، يجعلنا نحس بأننا لم نبتعد عن واقعنا الجغرافي والاجتماعي، واننا نعايش شخوصا نعرفهم تماما . وأحداثا عانينا منها أو سمعنا عنها كثيرا في أية قرية من قرانا ، فهل نستطيع أن نؤكد على ان رواية « موسم الهجرة الى الشمال » هي رواية سودانية أم عربية ؟.. انها في الواقع دليل على تأكيدنا وتمسكنا بوحدة الادب العربي وعدم تجزئته وتصنيفه جغرافيا .

وأحب أن أؤكد ـ لكي لا يكون هناك أي التباس في فهم الموضوع ـ على ان التعريف ـ دراسيا ـ بالادب والادباء في أي قطر من الاقطار العربية لا اعتراض عليه، وخاصة اذا كانت هناك جهود تبذل لتقديم أدباء غير معروفين لدينا بسبب وجودهم في قطر عربي بعيد وتحول الظروف السلبية دون وصول نتاجهم الينا . ان من يبذل مثل هذه الجهود يقدم ولا شك خدمة جليلة للادب العربي. أما اذا كان هناك اصرار متعمد ومتواصل من قبل بعض المؤسسات الثقافية أو بعض النقاد والادباء وتكريس الجهود الكاملة للتركيز على الادب المحلي ووضع الهالات البراقة حوله ، فهذا هو الخطأ بعينه وهنا تكمن الخطورة ، وتكفينا مرارة الردة الادبية لدى بعض الادباء في القطر المصري ومحاولتهم الانسلاخ عن جذورهم العربية بعد الاحداث الاستسلامية التي تجري في منطقتنا العربية ومحاولة العودة في التفكير الى أسلوب أحدّ وأخطر من أسلوب العشرينات والثلاثينات من هذا القرن .

دمشق